محاضرة (3): تطور المفهوم العلمي للثقافة

1 - النظرية التطورية:

دخل مصطلح الثقافة دوائر العلم والبحوث الموضوعية أثناء القرن التاسع عشر وتحديدا 1871م، حينما أصدر "**تايلور**" كتابه المتضمن للتعريف الشهير والذي عنونه "الثقافة البدائية "، ويستخدم الأنثروبولوجيون هذا المصطلح ليشيروا إلى المجتمعات الصغيرة من ناحية عدد السكان أو المساحة أو تشعب العلاقات الاجتماعية، وتتصف المجتمعات البدائية عادة ببساطة الفنون والأدوات والنظم الاقتصادية، وقلة التخصص في الوظائف الاجتماعية.

فالثقافة بالنسبة إلى " **تايلور**" تعبر عن كلية حياة الإنسان الاجتماعية وتتميز ببعدها الجماعي والثقافة أخيرا مكتسبة ولا تأتي إذا من الوراثة البيولوجية، على أنها ولئن كانت مكتسبة فإن أصلها وخاصيتها لاواعيين إلى حد بعيد، كما يعتبر " **تايلور**" أن كل البشر كائنات ثقافية.

ويعد " **تايلور**" أول باحث أنثربولوجي قام بإجراء بحوث مرتكزة أساسا على تقنية الملاحظة المباشرة والممتدة عبر كامل الثقافات البدائية،حيث كرس كل أعماله لتحقيق هدفه الجوهري وهو إثبات أن الاختلاف الأساسي بين الجماعات الإنسانية يكمن في الثقافة وليس العرق، ولقد كان واحدا من أوائل العلماء الاجتماعيين الذين تخلو عن مفهوم "العرق" في تفسير التصرفات البشرية.

كما قام " **تايلور**" بمواجهة أولئك الذين كانوا يقيمون قطيعة بين الإنسان المتوحش والوثني، وبين الإنسان المتحضر، والتوحيدي، كان حريصا على بيان الصلة الجوهرية التي كانت توحد بين الأول والثاني، هذا الذي لم يكن لمنتهى مساره من مآل سوى الدنو من الأول، فليس بين البدائيين والمحتضرين اختلاف في الطبيعة. بل مجرد فارق في درجة التقدم على طريق الثقافة.

2- التطورية المحدثة في الثقافة:

رغم ازدهار فكرة تطور الثقافة عند " **تايلور**"، إلا أن علماء الأنثروبولوجيا ابتعدوا بالتدريج عن هذه النظرية واتجهوا نحو دراسة الاختلاف أو الفروق بين الجماعات. واتضح من خلال دراساتهم

أن تلك الفروق لا تشمل فجوات في عملية التطور، ولذلك ظهرت نظرية الثقافة كتقدم تطوري في البشرية ككل في نصف القرن العشرين بشكل آخر يطلق عليها التطورية المحدثة في الثقافة.

فإذا كانت النظرية التطورية في القرن التاسع عشر قد اهتمت بالنمط الثقافي العام الذي يميز الجنس البشري ككل، أي اهتمام بالحضارة في مفهومها الإثنوجرافي الواسع، فإن النظرية الجديدة لوظيفة الثقافة في ضوء تلك النظرية الراهنة تظهر من خلال الكيفية التي تربط الإنسان بالبيئة المحيطة به، كما أنها من ناحية أخرى تربط الأفراد والجماعات بعضهم ببعض، وهنا يدخل كل منهم في علاقات مع الآخرين.

ويرى "**هوايت**" ضرورة الاستعانة بالنظرية الرمزية، ويقصد "**هوايت**" بمصطلح "الرمزية" أن الناس يستخدمون الرموز مثل الكلمات التي تعبر عن أشياء حدثت في خبراتهم. ويستطيع الناس عن طريق الرموز أن ينقلوا المعرفة والمعتقدات إلى أشياء فعلية ومن خلال استخدام الرموز يستطيع الناس أن يعطوا معاني خبراتهم، يظهر ذلك بوضوح في اللغة الكلامية التي هي أهم ما يتميز به الإنسان عن غيره من الكائنات، والتي بمقتضاها أيضا يضفى الإنسان على المعاني والأفكار والأشياء والقوانين والعواطف والاتجاهات وغيرها من معاني خاصة.

كما أن الثقافة عند "**هوايت**" هي نظام السيطرة على الطاقة لمساعدة الناس في مواجهة الصراع من أجل الوجود والبقاء، ولذلك فهو يرى إن زيادة القدرة على تسخير الطاقة توضح التقدم، لأن الطاقة تؤدي إلى حدوث تغيرات تساعد الناس على تكيفهم بكفاءة أكثر نحو البيئات التي يعشون فيها.

3 – النظرية الانتشارية:

افترض المناهضون للتطور أن الاتصال بين الشعوب المختلفة قد نتج عنه احتكاك ثقافي، وعملية انتشار لبعض، أو كل، السمات الحضارية، الأمر الذي يمكن أن يفسر في ضوئه التباين الحضاري للشعوب وليس في إطار عملية تطورية، ويعتبر"**فرانز بوا**" الرائد الأول لهذا الاتجاه الانتشاري في أمريكا، فالمدرسة الأمريكية ترى أن الملامح المميزة لثقافة ما قد وجدت أولا وقبل كل شيء في مركز ثقافي جغرافي محدد، ثم انتقلت إلى مناطق أخرى، وبذلك رفض الانتشاريون

الأمريكيون ما ذهب إليه الأوربيون من الزعم بعدم إمكانية التطور المستقل وأن الناس بطبيعتهم غير مبتكرين.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاتجاه قد تبنى منهجا تاريخيا جغرافيا بتأثير كبير من المدرسة الجغرافية الألمانية، ورائدها "**فريديريك راتزال**"، الذي ركز على أهمية الاتصالات والعلاقات الحضارية بين الشعوب ودورها في النمو الحضاري وقد نمى تلاميذه هذا الاتجاه وخاصة "**بنريحسورتزh.schurtz**" الذي أبرز فكرة وجود علاقات حضارية بين العالم القديم (اندونيسيا وماليزيا) والعالم الجديد(أمريكا).

كما يرى "**بوا**" أنه لا يوجد فرق في الطبيعة البيولوجية بين الإنسان البدائي والمتحضر ولكن الاختلافات بينهما تكمن في تلك الثقافة المكتسبة التي هي غير فطرية. فقد خصص كل أبحاثه ولأكثر من نصف قرن للتفكير في الفروق والاختلافات في الجماعات البشرية، واستبعد العوامل الجسمية والجبلية من أي تأثير في السلوك والسمات العقلية.

على عكس " **تايلور**" كان "**بوا**" الذي أخذ عنه على الرغم من ذلك تعريفه للثقافة قد حدد لنفسه غاية في دراسة الثقافات (في الجمع) بدلا من الثقافة في (المفرد).

و"**لبوا**" ندين بالتصور الأنثربولوجي لـ "النسبية الثقافية "، وإن لم يكن هو الذي من ابتدع العبارة التي لم تظهر إلا لاحقا، ولا كان أول من فكر في نسبية الثقافة. وبهذا يرجع الفضل إلى المدرسة الانتشارية في طرح فكرة تعدد وتنوع الثقافات والنسبية الثقافية التي أصبحت من ذلك الحين من أهم المفهومات الرئيسية في الفكر الأنثروبولوجي وتطوره، سواء من الولايات المتحدة الأمريكية أو خارجها

إذا كان "**بوا**" محترزا تجاه التولفات التأملية الكبرى وخاصة تجاه النظرية التطورية الأحادية التي كانت مهيمنة حينها في الحقل الثقافي، فقد عرض سنة 1896م في مداخلة علمية ما كان يعتبره "حدود المنهج المقارن في الأنثروبولوجيا"، وكان ينتقد نزوع غالب الكتاب التطوريين إلى المقارنة غير الحذرة. فقد نتج عن هذا الاتجاه الانتشاري بصفة عامة، أن بدأ الأنثروبولوجيين ينظرون إلى الثقافات الإنسانية باعتبار أن لها كيانات مستقلة من حيث المنشأ والتطور والملامح

الرئيسة التي تميزها عن غيرها، وذلك على عكس التطورين الذين رأوا أن الثقافات متشابهة، وأن الاختلاف الوحيد بينهما يكمن فقط في درجة تطورها التكنولوجي والاقتصادي.

كان "**بوا**" يرتاب أيضا، وللأسباب نفسها من الأطروحات الانتشارية المؤسسة على عمليات إعادة تركيب تاريخية مزعومة، كان بشكل عام، يستبعد كل نظرية تزعم القدرة على تفسير كل شيء، لقد كان لحرصه على الصرامة العلمية يرفض كل تعميم يخرج عن إطار ما كان يمكن أن يقام عليه الدليل تجريبيا. فهدفه انصب في الدراسة التاريخية الدقيقة للعناصر المختلفة لثقافة معينة (الهنود الحمر مثلا)، وتحليل كل جزء أو عنصر من حيث مصدر نشأته وتطوره واستخدامه وتتبع عمليات هجرته أو استعارته بين الشعوب المختلفة.

كانت كل ثقافة بالنسبة إليه واحدة ومخصوصة، كان انتباهه منجذبا عفويا، إلى ما يمثل فرادة ثقافة ما، قبله لم تكن الثقافات المخصوصة أبدا تقريبا، موضوعا لمعالجة الباحثين معالجة لها هذه الاستقلالية، ذلك أن كل ثقافة تمثل بالنسبة إليه كلية متفردة، حيث عارض بوجود طبيعة واحدة وثابتة للتطور الثقافي، ورأي أن أية ثقافة من الثقافات ما هي إلا حصيلة نمو تاريخي معين.

وكان كل جهده منصبا على البحث في ما يصنع وحدتها وهذا هو مأتى اهتمامه، لا بوصف الظواهر الثقافية وحسب، بل بفهمها وذلك بوصلها بالكل الذي به ترتبط لا بتسيير تفسير عادة معينة ما لم تتم إحالتها إلى سياقها الثقافي، ويتعلق الأمر أيضا بفهم الكيفية التي بها تكون التوليف الأصلي الذي تمثل كل ثقافة وما يصنع تجانسها. بالمقابل سوف يحتفظ تاريخ الأنثروبولوجيا ذكره بوصفه مؤسس المنهج الاستقرائي والمكثف الخاص بالميدان، كان يتصور الإثنولوجيا علما للملاحظة المباشرة بالنسبة إليه يتوجب خلال دراسته ثقافة معينة تسجيل كل شيء حتى تفصيل التفصيل.

فلكل ثقافة "أسلوب" معين يعبر عن نفسه عبر اللسان والمعتقدات والعادات والفن أيضا، مثلا لا حصرا.... الخ، يؤثر هذا الأسلوب، هذه "الروح" الخاصة بكل ثقافة في تصرف الأفراد، كان "**بوا**" يرى أن مهمة الإثنولوجيا هي أيضا تبين الصلة الرابطة بين الفرد وثقافته. وقد حققت دراسات "**بوا**" نجاحا كبيرا، وتكون حوله فريق من التلاميذ وبموازاة ذلك النشاط العلمي الواسع

لمدرسته نشطت الدراسات السوسيولوجية عن طريق ما عرف بمدرسة "**شيكاغو**" وتركزت على مقاربة الثقافة من زاوية الهجرة والعلاقات ما بين العرقية.